مجلة الرائد

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

عنوان المقال : تأملات في حديث السفينة	بقلم : أ. رشيد أبو أسامة

قال رسول الله ﷺ : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإذا تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإذا أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً** » [رواه البخاري] .

غالباً ما كان يفهم من هذا الحديث ، أن المقصود بـِ " السفينة " هو المجتمع الإسلامي الذي يتوقف تماسكه وفلاحه على الأمر بالمعروف والنهي عن أي منكر يعرضه للتقويض والانكسار ؛ غير أن المتمعن اليوم في أوضاع البشرية ، يلاحظ مباشرة أن وصف " السفينة " أضحى يعني العالم بأكمله وليس فقط الرقعة الجغرافية التي يقطنها حالياً المسلمون .

فليست الكرة الأرضية من الناحية الفلكية إلا فلكاً سابحاً في الفضاء . وقد أضحى مصير كل من يدب على هذه البسيطة مرتبطاً بعضه ببعض أكثر من أي وقت مضى . فلقد تداخلت المصالح والمشاكل الثقافية والاقتصادية والسياسية والبيئية والإعلامية ، بشكل أصبح معه من الصعب فصل ما هو محلي عن ما هو عالمي . فلم تعد الحدود الجغرافية الفاصلة بين الدول تحمي وتضمن السيادة القطرية إلا بشكل جد محدود .

فعلى المستوى الثقافي ، لم تعد الدول ، وخاصة منها الأقل قوة ، قادرة على توجيه شعوبها بالشكل الذي تريد ، لأنها لن تستطيع التحكم في ما يستقبله الناس عبر وسائل الإعلام والاتصال ، العابرة للقارات . بل أصبحت هناك إرادة حازمة لدى من يتحكمون في عالم اليوم ، لتنميط شعوب العالم ضمن ثقافة تسلبها القدرة على مقاومة الاستلاب وفقدان الهوية .

أما على المستوى الاقتصادي ، فتداخل المصالح أدهى وأمر ؛ ولا أدل على ذلك من وضع الدولار الأمريكي الذي يشكل عملة قطرية وعالمية في نفس الوقت ، بحيث تنعكس كل التقلبات الاقتصادية والمالية الأمريكية بشكل مباشر على أوضاع باقي دول العالم .

وتبين المديونية العالمية التي تقدر اليوم ٣٢٠٠٠ مليار دولار ، منها فقط ١٩٠٠ مليار دولار - حسب إحصاءات ١٩٩٤- مستحقة على العالم الثالث ، إلى أي حد يرتبط مصير دول بكاملها ، وخاصة منها الدول النامية ، بإرادة المؤسسة الدولية المانحة للقروض .

وتعبر الأزمات التي تنتقل عبر بورصات القيم العالمية كالنار في الهشيم منذرة بكوارث شاملة ، عن مدى ارتباط المنافع والهواجس والهلع عبر الهيئات المالية الدولية .

ولم تعد البطالة شأناً داخلياً صرفاً بل أصبحت أمراً عالمياً تؤججها المنافسة التجارية العالمية الضاربة ، والبحث عبر العالم ، عن أرخص مواقع للإنتاج .

وحتى تجارة المخدرات أضحت شأناً عالمياً تتداخل فيه حاجيات الدول المنتجة للعملة الصعبة التي تمكنها من أداء ديونها ، ومصلحة الجهات الدائنة في استرجاع أموالها ، ومطامع البنوك التي تتولى تبييض الأموال القذرة ، ثم في النهاية الرغبة الحادة للمستهلك في الحصول على وجبته اليومية .

وتعتبر الأضرار التي أصابت البيئة والأخطار والكوارث المترتبة عن ذلك عبر المعمورة ، من أوضح علامات ارتباط المصير الإنساني بعضه ببعض .

وبنفس الشكل الذي كان المفهوم الخاطئ للحرية ، يهدد بالغرق ركاب " السفينة " الواردة في الحديث ، يهدد اليوم الغرب ، الذي لا يمثل إلا خمس البشرية ، بنموذجه الليبرالي ، السفينة الأرضية بالدمار . وهذا ما تشهد به حصيلة خمسة قرون من الهيمنة الغربية على العالم ، فالوضع البشري ينذر اليوم بشر مستطير ، تشهد له هذه الأرقام المفزعة :

في دول الجنوب :

١- اتساع دائرة الفقر لتشمل ١٤٠٠ مليون فرد يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم - حسب تعريف البنك الدولي للفقر - . وقد يرتفع هذا العدد إلى مليارين مع نهاية القرن العشرين [Manière de voir n؛ 29] . يموت يومياً من هؤلاء ٤٠,٠٠٠ فرد ، منهم ٣٤,٠٠٠ دون سن الخامسة ؛ أي ما يعادل حصيلة قتلى هيروشيما كل يومين [الهيرالد تريبون/يونيو ٩٤] . وتقول التقديرات أن عدد الفقراء سيرتفع سنة ٢٠٢٠ إلى ٣ مليارات ، منهم ٢,٥ بدون مأوى ، ومليارات لا يحصلون على الماء الصالح للشرب - حسب Manière de voir n؛ 25 76 - .

٢- ارتفاع المديونية بشكل مطرد رغم أداء الفوائد التي تستنزف الدول المدينة أيما استنزاف : لقد ارتفعت هذه المديونية بين سنتي ١٩٨٠ و ١٩٩٣ من ٦٥٨ مليار دولار إلى ١٧٧٠ مليار ؛ وانتقلت بين ١٩٨٤ و ١٩٩٠ - تسديداً لخدمة الدين - مبالغ تقدر بـ ١٧٨ مليار دولار من دول الجنوب إلى البنوك التجارية الغربية دون أن تنخفض المديونية ، بل وصلت في نهاية ١٩٩٥ إلى ١٩٠٠ مليار دولار [Manière de voir n؛ 28] .

٣- الحروب الأهلية التي خلفت في أفريقيا وحدها أكثر من ٢٥ مليون مشرد .

٤- الهجرة نحو الشمال الذي يقبل بالأدمغة [1] . منذ ٣٠ سنة هاجر نحو الشمال أكثر من ٣٥ مليون شخص ، ويزداد هذا العدد بمليون مهاجر كل سنة . ولأسباب سياسية فقط هاجر سنة ١٩٩٥ إلى الشمال أكثر

من ٢٠ مليون شخص ، ثلثهم من إفريقيا ، وربعهم من آسيا ؛ اضطروا لمغادرة بلادهم خوفاً من الملاحقة أو العنف .

أما دول شرق أوروبا التي تخلت عن الشيوعية ، فلم يسعفها التحول إلى اقتصاد السوق في شيء ، وتعيش اليوم حالة مستديمة من الفقر والتفكك والفوضى والنزاعات والإجرام وكل أنواع الموبقات .

ماذا كانت النتيجة لهذه الليبرالية الجامحة في الغرب ؟

١- تركيز متزايد لم يسبق له مثيل للثروة والقوة في أيدي فئة قليلة من الناس . على المستوى العالمي ، يضم اليوم نادي أصحاب الملايين ٤٥٠ عضواً ، يستحوذون على ثروة تفوق مجموع الإنتاج الوطني الخام لكل الدول الفقيرة التي تضم ٥٦% من ساكنة العالم ؛ ثم إن ١% من الشعب الأمريكي مثلاً يسيطر على ٤٨% من الثروة الوطنية .

٢- يقدر عدد العاطلين عن العمل في البلاد المصنعة بحوالي ٣٥ مليون . ١٨ مليون منهم يوجدون في أوروبا حسب الإحصائيات[٢] .

٣- ازدياد ظاهرة التهميش والفقر . حيث تفيد الإحصائيات أن عدد الفقراء في أوروبا وصل ٥٣ مليونا سنة ١٩٩٢ ، أما في الولايات المتحدة فلا يتقاسم ٨٠% من المواطنين إلا ٦% من ثروة البلاد . ويصل عدد الأمريكيين الذين يعيشون في الفقر المدقع ٣٣ مليون فرد [٣] .

ورد في عدد يوليو ١٩٩٢ من صحيفة لوموند ديبلوماتيك : " يجب أن نسجل أن المنطق الذي يحكم المجتمع ينتج التهميش والفقر ، إن المجتمع يتجه نحو نموذج ثنائي حيث تتسع الهوة بين الغني والفقير بشك مطرد ". ويقول إكناسيو رامونيه : إذا استمرت الفوارق الاجتماعية في الاتساع فإن صدمات متزايدة من العنف والحدة قد تنشب بين المقصيين والمستوعبين ، بين المتخلى عنهم والمتحكمين الجدد في العالم .

وتجدر الإشارة إلى أن اتساع الفوارق الاجتماعية يؤدي مباشرة إلى تدهور الحالة الصحية لذوي الدخل المنخفض ، فالمجتمعات التي يتمتع مواطنوها بمعدل حياة أطول ، هي تلك التي تقل فيها الفوارق الاجتماعية ، وهذا ما تؤكده المقارنة بين الوضع في كل من اليابان وبريطانيا اللتين كان معدل الحياة متساوياً بينهما سنة ١٩٧٠ ، فلقد ازداد في اليابان ، التي يعتبر توزيع الدخل فيها أقل اتساعاً مما هو عليه في باقي الدول المصنعة ، بست سنوات وعشرة أشهر ، في حين لم يرتفع في بريطانيا حيث الفوارق الأكثر اتساعاً ، إلا بثلاث سنوات وعشرة أشهر .

أما المثال الثاني فتقدمه روسيا ، حيث أن حالة الفقر العنيف والفجائي التي أصابت فجأة الناس ، قد أدت إلى تفشي الأزمات القلبية ، حيث ارتفعت نسبة أمراض الدماغ والشرايين فجأة من ٢٥% إلى ٦٥% .

٤- تقليص الأجور والامتيازات الاجتماعية ، وكانت الإضرابات الواسعة التي حشدت إلى شوارع فرنسا في شهر ٩٥/١٢ أكثر من مليوني محتج ، علامة صارخة عن الرفض الشعبي لمنطق الليبرالية الجامحة .

أما في الولايات المتحدة فالحالة أدهى وأمر ، وهذه الشهادات أبلغ وصف لمعاناة الناس ؛ يقول James Sweeney مدير AFL-CIO : " لقد اشتغل الأمريكيون خلال السنوات الأخيرة مثل البغال وعوملوا مثل الكلاب ". [لوموند ديبلوماتيك/يناير ٩٧،ص١٧].

٥- صعود الروح القومية مع انعكاساتها العنصرية التي لم يسلم منها بلد غربي .

٦- اتساع ظاهرة الرشوة ؛ يقول كلود جوليان : " لقد اتسعت الرشوة بشكل غير مسبوق بسبب إلغاء المسطرة القانونية الثابتة التي عممها عهد ريغان وتاتشر " . إن الرشوة الدولية تنخر الغرب ، ولقد صارت هذه الممارسات عادية لدرجة أن المتواطئين أصبحوا كثيرين وغالباً لا مبالين .

٧- اتساع التلاعبات القانونية وازدهار دول خاصة بتبييض الأموال مثل سويسرا ولوكسمبورغ وجزر الباهامس وجزر كايمان .

٨- ولقد أدى الخوف على هذه الامتيازات التي يتمتع بها أصحاب النفوذ في الغرب ، إلى مزيد من التسليح حيث أنفق سنة ١٩٨٥ وحدها أكثر من ٧٠٠ مليار على ذلك لمواجهة أي مقاومة محتملة من دول الجنوب ، واستعداداً لأي طارئ قد يهدد هيمنة الدول المسيطرة ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، مما أدى إلى وضع ٤ أطنان من المتفجرات من النوع القديم على رأس كل إنسان .

٩- ارتفاع المديونية : لقد تجاوزت مديونية دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ١٣,٠٠٠ مليار دولار ، تؤدى عن طريق مزيد من الاستدانة . وتعتبر الولايات المتحدة الأكثر استدانة ، حيث تضاعف دينها العمومي خمس مرات إبان حكم ريغان وبوش ، ليصل إلى ٤٩٠٠ مليار دولار .

١٠- خضوع الدولة والإرادة السياسية لإرادة السوق ورأس المال . يقول إينياسيو رامونيت : " لقد أنشأت العولمة المالية دولتها الخاصة ، وهي دولة فوق الأوطان ، تملك آلاتها وشبكات تأثيرها ووسائل خاصة للفعل . ويتعلق الأمر بالمجموعة المكونة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التنمية والتعاون

عنوان المقال : تأملات في حديث السفينة	بقلم : أ. رشيد أبو أسامة

الاقتصادي والمنظمة العالمية للتجارة... ، لقد تحولت المنظمة العالمية للتجارة منذ سنة ١٩٩٥ إلى مؤسسة تتمتع بسلطات تتجاوز سلطة الدول ولا تخضع لأية مراقبة ديمقراطية نيابية ؛ وبمقدورها في حالة الاحتكام لها أن تقضي بأن تشريعات الوطنية المتعلقة بقانون الشغل أو حفظ البيئة أو الصحة العمومية ، منافية لحرية التجارة ، لتطالب بالتالي بإلغائها ".

" ليست الشركات العابرة للقارات مسؤولة إلا أمام مساهميها ؛ وهي مجرد آلة لتنمية أرباحها الآنية ، غير أنها تملك القدرة ، إذا اقتضى الحال ، على إجبار كل حكومة على الدفاع عن مصالح تلك الشركات ، ولو كان ذلك ضد مصالح الشعب الذي انتخب تلك الحكومة . ويعتبر هذا الاستعمار الجديد ، الأكثر قسوة وتهوراً من أي استعمار سبق " [Manière de voir n؛ 32, p47] .

تدمير البيئة :

يقول الدكتور المهدي المنجرة : " لأول مرة في تاريخ البشرية يستطيع الإنسان أن يدمر ذاته ، ويدمر نوعه ، إما بواسطة القوى التدميرية للأسلحة المتطورة ، وإما بواسطة الاختلالات البيئية للتصنيع السائب . إن التحولات البيئية التي حصلت خلال المائتي سنة الأخيرة ، أي العصر الذهبي للثقافة والحضارة الغربية ، وذلك منذ تحرير الطاقة انطلاقاً من المتفجرات ، قد أحدثت أضراراً أكثر من كل التحولات الأخرى ، منذ بداية الحياة على الأرض ، والتي تعود إلى أكثر من أربعة ملايين سنة " [الحرب الحضارية الأولى ، ص١٨ ، ص٤١٨].

ويقول سوزان جورج : " إن المنظمات السياسية والاقتصادية الدولية القائمة الآن - البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والمنظمة العالمية للتجارة والمؤسسات العابرة للقارات - تدمر البيئة أكثر مما تحميها ". وأضاف : " إن الدول الأكثر قوة هي التي ترفض الاعتراف بقيمة البيئة ، وذلك لأسباب متعددة ". بل هناك من أصحاب الصناعات الملوثة من يخوض حرباً إيديولوجية ضد المدافعين عن البيئة ، وذلك بدعم من اختصاصيين وممولين تابعين لأقصى اليمين .

والمعلومات التي تكشف حجم ما تتعرض له البيئة من تلويث وتدمير لا تدع مجالاً للشك في أن عالم اليوم يسارع حقيقة نحو كارثة محققة ، إذا استمر الوضع على ما هو عليه اليوم .

يقذف سنوياً في الجو ٢٢ مليار طن من غاز الكربون ، ويتوقع أن ترتفع حرارة الأرض من ١,٩ إلى ٢,٥ درجة مما قد يؤدي إلى ارتفاع مستوى البحار وإغراق الأراضي المنخفضة مثل البنغلاديش ومصب النيل ؛ غير أن الذي يحدث اليوم بالفعل هو مزيد من التصحر من جهة ، وهطول أمطار طوفانية من جهة

ثانية .

منذ بداية القرن تضاعف استهلاك الماء الصالح للشرب ٦ مرات - يستهلك الأوروبي ٧٠ مرة ما يستهلكه مواطن من غانا ، أما الأمريكي فيستهلك ٣٠٠ مرة أكثر - مما أدى إلى تناقص نسبة هذه المياه بشكل مقلق . ولقد أدى الإسراف والتبذير في استعمال الماء إلى اختفاء بحر " أرال " ؛ كما أصبحت بحيرة " بايكال " في سيبيريا - وتمثل أكبر احتياطي للماء العذب في العالم - مهددة بالموت بسبب ما يقذف فيها من نفايات .

تنتج دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ٩ مليار طن من النفايات ، وينتج الأمريكي ضعف الأوروبي ، وهو ما يعادل ١٦ مرة ما تنتجه الدول النامية . ويقذف بثلثي هذه الأزبال في المجاري والمزابل . أما النفايات الصناعية الخطيرة فيكتفى بدفنها ، مما يهدد بتلويث المياه الجوفية .

وهكذا أصبحت المياه الجوفية ملوثة بالنيترات بسبب ما يقذف في البيئة من فضلات ، مما يجعل معالجتها مستحيلة "[**Les eaux souterraines en France, Editions du BRGM**].

ويموت كل سنة ٥ مليون طفل بسبب تلوث المياه - تقرير منظمة الصحة الدولية لسنة ١٩٩٢- .

إن الكوارث البيئية لم تعد خافية : فمنذ ١٩٨٧ حصلت ١٥ كارثة مناخية أدت إلى خسائر تفوق في كل واحدة منها المليار دولار . وكانت السنوات الممتدة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٤ الأكثر حرارة في التاريخ ، ونجمت عنها ظواهر مقلقة : انفصال جبال جليدية ضخمة من القطبين ، تقلص المجالد السويسرية ، حدوث فيضانات قياسية في كل من إيران والصين وباكستان وتسع ولايات أمريكية ، حدوث موجات جفاف غير مسبوقة ، مصحوبة بحرائق مهولة في كاليفورنيا وبريطانيا وإفريقيا الجنوبية والشمال الشرقي للبرازيل وأستراليا ، أدى ارتفاع الحرارة إلى تبييض الصخور المرجانية بنسبة ٨٥% في كل من بولينيزيا والبحر الأحمر ؛ يقضي اقتلاع الغابات والزراعة الصناعية والاستعمال المفرط للمبيدات علىحوالي ٢٧,٠٠٠ نوع من الأحياء كل سنة. وقد يؤدي هذا إلى إبادة خمس التنوع البيولوجي خلال العشرين أو الأربعين سنة المقبلة [**Manière de voir n° 28**] .

خلال سنة ١٩٩٦ وحدها حدثت عبر العالم ٦٠٠ كارثة طبيعية أودت بحياة ١١,٠٠٠ إنسان ، وتتوزع كالتالي : ٢٠٠ عاصفة ، ١٧٠ فيضان ، ٥٠ هزة أرضية ، ٣٠ ثوران بركاني ، ١٥٠ كارثة أخرى مثل الحرائق في الغابات وموجات البرد أو الحرارة وانجراف التربة وانهيارات جليدية .

ويعتبر التغيير المناخي سبباً في تكاثر الفيروسات ، وسوف تجتاح أمراض مناطق لم تدخلها من قبل .

مجلة المرابط

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

عنوان المقال : تأملات في حديث السفينة	بقلم : أ. رشيد أبو أسامة

وفيما يتعلق بالتلويث الكيميائي ، يقذف بحوالي ١٠٠,٠٠٠ مُنتَج كيميائي من المعادن الثقيلة ومختلف المواد السامة في البيئة . وتثبت الكثير من الدراسات العلاقة بين هذه المواد والضعف في جهاز المناعة ، إضافة إلى النقص في الخصوبة البشرية والتشوهات الوراثية **[Manière de voir n؛ 28]** .

يقول علم البيئة بأن المعلومات حول هذا الموضوع تنذر بأن النموذج الغربي للتنمية وما خلفه من أضرار التلوث المختلفة قد تجاوز الحد الذي يمكن أن يتحمله الغلاف الحيوي للكرة الأرضية **[Manière de voir n؛ 28]** .

ورد في مطلع نص البيان الصادر عن المؤسسة من أجل تنمية الإنسان : " إذا استمرت مجتمعاتنا طويلاً وهي تعيش وتنمو بالشكل الذي تمارسه الآن ، فإن الإنسانية ستدمر نفسها... إننا نعاني من ثلاث اختلالات كبرى : بين الشمال والجنوب ، بين الأغنياء والفقراء ، وداخل كل مجتمع : بين الإنسان والطبيعة . وهي أزمات لا يمكن فصل بعضها عن بعض "[لوموند ديبلوماتيك ٩٤/٤] . يقول موريس شوسودوفسكي : " يجب أن نعرف بأن النظام الليبرالي - الذي حول الإنسان والمجتمع إلى سلعة - قد أفلس ، ويجب أن نعيد النظر في التعامل التجاري الدولي ونقيم سياسة لصالح الفقراء " .

ويقول مشيل برتراند عضو المجلس الموحد لمفتشي الأمم المتحدة : " لا يمكن حل المشاكل الأساسية المتعلقة بالأمن والاقتصاد إلا بتغيير جذري للمؤسسات الوطنية والدولية... والأمر ملح لأننا في مرحلة تصاعد المخاطر... والكل يعلم أن العالم الآن تقوده أقلية لا تخضع لأية رقابة ديمقراطية ، وهي في نفس الوقت غير قادرة على إيجاد حل للمشاكل القائمة... ".

أمام هذا المشهد الرهيب الذي يتهدد السفينة الأرضية بأكملها بالغرق ، يجد المؤمنون القائمون على حدود الله أنفسهم أمام مسؤولية إنقاذ كبرى ، تتجاوز حدود بلادهم التي لا تشكل إلا جزءاً من السفينة المهددة بالغرق . وسيكون المسلمون واهمين إذا تصوروا أن بإمكانهم إيجاد مخرج لأنفسهم بمعزل عن حل شامل للإنسانية جمعاء . ذلك الحل الذي لن يقوم إلا على الإيمان بالله الواحد الأحد وباليوم الآخر وبرسالة محمد ﷺ ؛ إيماناً يقيم علاقات الشعوب والدول والناس أجمعين على العدل والحق ، ويضع للإنسان في هذا الوجود هدفاً أسمى من الاستهلاك والتناسل ، ألا وهو عبادة الله تعالى التي تنظم علاقته مع ربه ومع أخيه الإنسان ومع كل الكائنات الحية من حوله .

لقد بدأ كثير من عقلاء الغرب المشفقين على مصير الإنسانية يدركون استحالة استمرار الحياة

واستقامتها من دون قيم ومبادئ تتجاوز المنفعة واللذة الصرفة ، وأضحوا ينادون بضرورة اعتبار المصلحة العامة والتحلي بالإيثار والمبادرة المتجردة إلى فعل الخير ، غير أن قليلاً منهم من يهتدي إلى ضرورة الإيمان بالغيب لكي تقوم القيم وتستقيم .

الهوامش :

(١) في فرنسا وحدها يوجد من بين الأشخاص الذين وصل تكوينهم إلى ما فوق الدكتوراه : ٦٥٠ من المغرب و ٥٠٠ من الجزائر و ٤٥٠ من تونس . من كتاب الحر ب الحضارية الأولى / د. المهدي المنجرة ، ص ١٧٥ ، الرباط ١٩٩١ .

(٢) أما عدد العاطلين في العالم فيقدر بـِ ١٢٠ مليون عاطل .

(٣) يراجع كتاب Les Etats-Unis Avant-garde de la décadence, p 13, Roger Garaudy .